

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - صور من حياة التابعين - الدرس ٧ : التابعي عطاء بن أبي رباح.
فضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٢-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

فضيلة الشيخ

عندما نتحدث عن التابعين الكرام الذين ملؤوا الدنيا عدلا و سمعة طيبة و أخلاقا رائعة، و كانوا بحق قدوة، اليوم بين أيدينا اسم جليل هو عطاء بن أبي رباح، تابعي جليل نبدأ بالحديث عنه. يقول أحدهم: ما رأيت أحدا يريد العلم لوجه الله عز وجل غير هؤلاء الثلاثة ؛ منهم عطاء، هانحن أولاء في العشر الأخير من شهر ذي الحجة سنة سبع و تسعين للهجرة، وهذا البت العتيق يموج بالوافدين إلى الله من كل فج عميق، مشاة و ركبانان شيوخا و شبانا، رجالا و نساء، فيهم الأسود و الأبيض، و العربي و العجمي، و السيد و المسود، لقد قدموا جميعا على ملك الناس، مخبتين ملبين راجين مؤملين، وهذا سليمان بن عبد الملك خليفة المسلمين، و أعظم ملوك الأرض يطوف بالبيت العتيق حاسر الرأس حافي القدمين، ليس عليه إلا إزار و رداء، شأنه في ذلك كشان بقية رعاياه من إخوته في الله، و كان من خلفه ولداه، وهما غلامان كطلعة البدر بهاء و رواء، و كأكام الورد نضارة و طيبا، وما أن انتهى من طوافه حتى مال على رجل من خاصته و قال: أين صاحبكم ؟ فقال: إنه هناك قائم يصلي، و أشار إلى الناحية الغربية من المسجد الحرام، فاتجه الخليفة ومن وراءه إلى حيث أشير إليه، و هم رجال الحاشية بأن يتبعوا الخليفة ليفسحوا له الطريق، و يدفعوا عنه أذى الزحام، فتناهم عن ذلك و قال: هذا مقام يستوي فيه الملوك و السوقة، و لا يفضل فيه أحد عن أحد إلا بالقبول و التقوى، رب أشعث أغبر قادم إلى الله عز وجل فتقبله بما لم يتقبل من الملوك " ثم مضى نحو الرجل فوجده ما يزال داخلا في صلاته غارقا في ركوعه و سجوده، و الناس جلوس وراءه و عن يمينه و عن شماله، فجلس حيث انتهى به المجلس، و أجلس معه ولديه، و طفق الفتیان القرشيان يأملان ذلك الرجل الذي قصده أمير المؤمنين، و جلس مع عامة الناس ينتظر فراغه من صلاته، فإذا هو شيخ حبشي، أسود البشرة مفلفل الشعر، افطس الأنف، إذا جلس بدا و كأنه غراب أسود، و لما انتهى الرجل من صلاته مال بشقه على الجهة التي كان فيها الخليفة فحياه سليمان بن عبد الملك، فرد التحية بمثلها، و هنا أقبل عليه الخليفة و جعل يسأله عن مناسك الحج منسكا منسكا، وهو يفيض بالإجابة عن كل مسألة، و يفصل القول فيها تفصيلا لا يدع سبيلا لمستزيد، و يسند كل قول يقوله إلى النبي صلى الله عليه و سلم، و لما انتهى الخليفة من مساءلته جزراه خيرا و قال لولديه: قوما فقاما، و مضى الثلاثة نحو المسعى، و فيما هو في طريقهم إلى السعي بين الصفا و المروة سمع الفتیان المنادون ينادون: يا معشر المسلمين لا يفتي الناس في هذا المقام إلا عطاء بن أبي رباح، فإن لم يوجد فعبد الله بن

أبي نجیح، فالتفت أحد الغلامین إلى أبيه و قال: كيف يأمر عامل المؤمنین الناس بأن لا یستفتوا أحدا غیر عطاء بن أبي رباح و صاحبه، ثم جئنا نحن نستفتي هذا الرجل الذي لم یأبه بالخليفة، ولم یوفیه حقه من التعظیم، فقال سلیمان لولده: هذا الذي رأیته یا بني و رأیت ذلنا بین یدیه هو عطاء بن أبي رباح، صاحب الفتيا في المسجد الحرام، و وارث عبد الله بن عباس في هذا المنصب الكبير، ثم أردف یقول: یا بني تعلموا العلم فبالعلم یشرف الوضیع، ینبه الخامل، و یعلو الأرقاء على مراتب الملوك.

لم یکن سلیمان بن عبد الملك مبالغا فیما قاله لابنه في شأن العلم، فقد كان عطاء بن أبي رباح في صغره عبدا مملوكا لامرأة من أهل مكة، غیر أن الله جل جلاله و عز نواله أكرم الغلام الحبشي بأن وضع قدمیه منذ نعومة أظفاره في طریق العلم، فقسم وقته أقساما ثلاثة، قسم جعله لسیدته یخدمها فيه أحسن ما تكون الخدمة، و یؤدي لها حقوقها علیه أكمل ما تؤدی الحقوق، و قسم جعله لربه یفرغ فيه لعبادته، أصفى ما تكون العبادة و أخلصها لله عز وجل، و قسم جعله لطلب العلم، حيث أقبل على من بقي حیا من أصحاب رسول الله صلى الله علیه وسلم، و طفق ینهل من مناهلهم الثرة الصافية، فأخذ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعن عبد الله عمر و عبد الله بن عباس و عبد الله بن الزبير غیرهم رضوان الله تعالی علیهم حتی امتلأ صدره علما و فقها و رواية عن رسول الله صلى الله علیه وسلم.

و لما رأت السیدة المكية أن غلامها قد باع نفسه لله، و وقف حیاته على طلب العلم تخلت عن حقها فيه، و اعتقت رقبته تقربا لله عز وجل، لعل الله ینفع به الإسلام و المسلمین، و منذ ذلك الیوم اتخذ عطاء بن أبي رباح البیت الحرام مقاما له، فجعله داره التي یأوي إليها، و مدرسته التي یتعلم فیها، و مصلاه الذي یتقرب فيه إلى الله بالتقوى و الطاعة، حتی قال المؤرخون: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح نحو من عشرين عاما.

وقد بلغ التابعي الجلیل عطاء بن أبي رباح منزلة في العلم فائق كل تقدير، و سما إلى مرتبة لم ینلها إلا نفر قليل من معاصریه، فقد روي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه و عن أبيه أمّ مكة معتمرا، فأقبل الناس علیه یسألونه و یستفتونه، فقال: إني لأعجب لكم یا أهل مكة أتجمعون لي المسائل لتسألوني عنها و فیكم عطاء بن أبي رباح " و قد وصل عطاء بن أبي رباح إلى ما وصل إليه من درجة في العلم و الدين بخصلتین اثنتین ؛ أولهما أنه أحكم سلطانه على نفسه، فلم یدع لها سبیلا لترتع فیما لا ینفع، و ثانيتهما أنه أحكم سلطانه على وقته فلم یهدره في فضول الكلام و العلم.

حدّث محمد بن سوقة جماعة من زواره قال

((ألا أسمعكم حديثا لعله ینفعكم كما نفعني ؟ قالوا: بلى، قال: نصحني عطاء بن أبي رباح ذات یوم فقال: یا ابن أخي إن الذين من قبلنا كانوا یكروهون فضول الكلام، فقلت: وما فضول الكلام عندهم ؟ قال: كانوا یعدّون كل كلام فضول ما عدا كتاب الله عز وجل أن یقرأ و یفهم، و حدیث

رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يُروى و يُدرك، أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو علما يُتقرب به إلى الله تعالى، أو أن تتكلم بحاجتك ومعيشتك التي لا بد لك منها، ثم حَقَّق في وجهه و قال: **أنتكرون** ((

﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾

[سورة الانفاطار]

و أن مع كل منكم ملكين،: يمين و عن شمال،

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾

[سورة ق]

ثم قال: أما يستحي أحدنا لو نُشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره فوجد أكثر ما فيها ليس من أمر دينه و لا من أمر دنياه " و لقد نفع الله عز وجل بعلم عطاء بن أبي رباح طوائف كثيرة من الناس.

هل لنا سماحة الشيخ محمد راتب النابلسي أن نضيف شيئا جديدا عن هذا التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح ؟

من ذلك ما حدَّث به عثمان بن عطاء الخراساني قال: انطلقت مع أبي أريد هشام بن عبد الملك، فلما غدوا قريبا من دمشق إذا نحن بشيخ على حمار أسود عليه قميص صفيق، وجبة بالية، و قانسوة لاصقة برأسه، وركابه من خشب، فضحكت منه و قلت لأبي: من هذا ؟ قال: اسكت هذا سيد فقهاء الحجاز، فلما قرب منا نزل أبي عن بغلته فاعتنقا و تساءلا ثم عادا فركبا و انطلقا حتى وقفا على باب قصر هشام بن عبد الملك، فلما استقر بهما الجلوس حتى أذن لهما، فلما خرج أبي قلت له: حدِّثني بما كان منكما فقال: لما علم هشام أن عطاء بن أبي رباح بالباب بادر فأذن له، و والله ما دخلت إلا بسببه، فلما رآه هشام قال: مرحبا مرحبا، ها هنا ها هنا، وما زال يقول له: ها هنا ها هنا حتى أجلسه معه على سريره، و مسَّ بركبته ركبته، و كان في المجلس أشراف الناس، و كانوا يتحدثون فسكتوا، ثم أقبل عليه هشام فقال: ما حاجتك يا أبا محمد ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين أهل الله و جيران رسوله، تقسم عليهم أرزاقهم و أعطياتهم، فقال: نعم، يا غلام اكتب لأهل مكة و المدينة بعطاياهم و أرزاقهم لسنة - شيء جميل - ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ فقال: نعم، يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز و أهل نجد اصل العرب و قادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم، فقال: نعم، يا غلام اكتب بأن تُرد فيهم فضول صدقاتهم، هل من حاجة غي ذلك يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يقفون في وجوه عدوكم و يقتلون من رام المسلمين بشر تجري عليهم أرزاقا تدرها عليهم، فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور، فقال: نعم، يا غلام اكتب بحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين أهل ذمتكم لا يكلفون ما لا يطيقون، فإن ما تجبونه منهم معونة لكم على

عدوكم، فقال: يا غلام اكتب لأهل الذمة بألا يُكفوا ما لا يطيقون، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم، اتق الله في نفسك يا أمير المؤمنين.

ونحن فضيلة الشيخ محمد راتب النابلسي، نمسأل الله عز وجل التوفيق و الإخلاص، أهلا بكم و مرحبا، الأستاذ المحاضر في كلية التربية بجامعة دمشق، و خطيب جامع الشيخ عبد الغني النابلسي في مدينة دمشق والمدرس الديني في مساجد دمشق، نشكركم فضيلة الشيخ، إلى اللقاء إن شاء الله، و السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته.

شكرا الأستاذ جمال،

والحمد لله رب العالمين